مستقبل الشرق الادنى

يظن البعض ان الشرقيين عاجزون عن ادارة امورهم بايديهم لانهم يرون ما في بلدانهم المختلفة من الضعف والوهن وتضعضع القوى . ولكننا اذا بحثنا في تاريخهم القديم وجدنا ان هذا الضعف طارئ عليهم وانهم لم يكونوا كذلك في غابر الازمان . واذا قسناهم بغيرهم من امم الارض وعلمنا ان الاسباب المشابهة تنتج نتائج متشابهة ترجح لنا انهُ لا يتعذر عليهم ان يلموا شعثهم ويستردوا مجدهم السابق . فان الامم التي نحسبها الآن متسخة غارب المجد وراقية ذرى الفلاح لم تكن كذلك منذ بضع مئات من السنين . فامَّة اليابان مثلاً لم تكن ارقى من مجاوريها سكان الهند والصين منذ مئة سنة وهي الآن مثل امم اوربا العظمى . ودول اوربا لم يكن لها شأن كبير منذ الف سنة وهي الآن في اوج مجدها

بينما كنا نفكّر في هذه الامور وقعا قد يأول اليهِ حال بلاد الشام بعد هذه الحرب وقع نظرنا على ترجمة انكليزية لكتاب ارسطوطاليس في السياسة او الحكومة فتناولناها وفتحناها . ومن غريب الاتفاق ان الفصل الذي فُتح امامنا كان الفصل العاشر من الكتاب الثاني وفيهِ وصف مجمل لحكومة قرطاجنة المستعمرة السورية في شمال افريقية على ما كانت عليهِ في عهد ارسطوطاليس

والمعروف من تاريخ قرطاجنَّة انها مستعمرة من مستعمرات السوريين او الفينيقيين سكان صور وصيداء وبيروت وسائر السواحل السورية انشأوها منذ اكثر من ثلاثة آلاف سنة وعظمت مدينتها قرطاجنة حتى بلغ عدد سكانها مليون نفس اي اكثر من سكان القاهرة الآن واكثر من سكان اية مدينة كانت في اوربا ما عدا بعض العواصم كلندن وباريس . واغتنت بصنائعها ومتاجرها واستولت على جانب من اوربا وناظرت ممالك اليونان والرومان ودامت الحرب بينها وبين رومية نحو ٧٥ سنين كثيرة ولم تغلب رومية عليها الاَّ بعد عناء كثير . وقد وصف ارسطوطاليس حكومتها التي كان لها اليد الطولى في ترقيتها بعد ان وصف حكومة كريت وحكومة اسبرطة فقال : —

« يظهر ان حكومة قرطاجنَّة قائمة على دعائم ثابتة وهي من وجوه كثيرة ارقى من غيرها فانها تشبه حكومة اسبرطة في بعض الامور . بل ان هذه الممالك الثلاث كريت واسبرطة وقرطاجنة متشابهة كثيراً في بعض الامور ومختلفة كثيراً في غيرها . ومن اهم الامور التي تمتاز بها ان الشعب يشارك حكامهُ ومع ذلك لا يضطر ان يخرج عليهم ولا هم يخطون الى

استعمال الجور والغطرسة . فما يشارك القرطاجنيون فيه الاسبرطيين ان الذين تربطهم روابط الصداقة يجلسون حول موائد واحدة . وللقرطاجنيين مجلس شورى مثل مجلس الاسبرطيين فيه مئة نائب واربعة رؤساء منتخبون على اسلوب احكم من اسلوب الانتخاب في اسبرطة لان كل واحد من سكان اسبرطة يحق له ان ينتخب لمجلس الشورى مهما كان شأنهُ واما في قرطاجنة فالاعضاء ينتخبون من خاصة الشعب . والمملكتان متشابهتان من حيث الملوك ومشيروهم ولكن طريقة قرطاجنة اصلح من طريقة اسبرطة لانها تنتخب ملوكها انتخاباً ولا تتقيد بانتخابهم من اسرة واحدة ولا تراعي السن في انتخابهم بل تفضل من يعلو فضلهُ على فضل غيرهِ ولو كان الاول اصغر سناً من الثاني لان سلطة الملك واسعة فاذا لم يكن على جانب كبير من الفضل والسلاح فقد يضرُّ ضرراً كبيراً كما حدث في اسبرطة مراراً

« والمبادىء التي بنى الاسبرطيون دعائم حكومتهم عليها مؤلفين اياها من الارسطقراطية والديمقراطية (اي حكومة السراة وحكومة العوام) بعضها يميل الى الحكومة الديمقراطية و بعضها الى الحكومة الاوليغركية (اي التي يتولاها خاصة الامة او اغنياؤها) فاذا اتفق رأي الملك مع رأي مشيريهِ كلهم في امر من الامور بعد بحثهِ فلهم ان يعرضوهُ على الجمعية العمومية او يقروهُ ولا يعرضوهُ عليها . ولكن اذا اختلف الملك ومجلس الشورى وجب عليهم ان يعرضوا الامر على الجمعية العمومية وهي تسمع ما يقولهُ الفريقان وتحكم فيهِ ولكل واحد من اعضائها ان يبدي رأيهُ . وعندهم خمسة مشيرين واسمو السلطة ينتخب بعضهم بعضاً و ينتخبون هم اعضاء مجلس الشورى ويرأسونهُ وهؤلاء الخمسة من اعلى طبقات الشعب واغناها وهم يخدمون بلادهم مجاناً من غير اجر ولذلك جعلت الحكومة تميل الى الاوليغركية اي الحكومة التي يتولاها خاصة الاغنياء وصار هؤلاء المشيرون يرأسون السراة او الحكومة الارسطقراطية بناء على رأي شاع وتسلط على النفوس وهو ان الحاكم لا يكفي ان يكون صاحب جاه بل يجب ان يكون صاحب ثروة واسعة ايضاً لانهُ يستحيل على من لم يكن صاحب ثروة ان يقوم بما يستدعيهِ سمو منصبهِ او ان يتفرغ لخدمة بلادهِ

« ولما كان اختيار الحكَّام من اهل الثروة بمثابة جعل الحكومة اوليغركية واختيارهم من اهل الجاه بمثابة جعلها ارسطقراطية فاختارت قرطاجنة اسلوباً جامعاً بين هذين الطرفين وعليهِ تجري بنوع خاص في انتخاب الرجال لاعلى المناصب اي منصب الملك ومناصب قواد الجيش ولكن اذا انتُخب هؤلاء من الناس ذوي ثروة ولا فضل لهم انحطَّ شأن المملكة لانها تصير تفضل الغنى على الفضل و يصير حب المال خطَّة غالبة في المدينة لأن ما يحترمهُ اصحاب

المناصب العالية لا يهتم ان يصير قبلة السكان بنوع عام والغرض الذي يرمون اليه . وحيث لا يخص الاحترام الاعظم بالفضيلة لا تفلح حكومة الفضلاء لاسيما وان الاغنياء الذين يحرزون مناصبهم بالمال يحاولون ان يستفيدوا منها . واذا حمل الفقر من كان فاضلاً وجيهاً على الاكتساب بطرق غير محللة فلا يؤخذ ذلك دليلاً على ان المحروم من الفضل لا يحاول الاكتساب بتلك الطرق ولاسيما اذا اراد ان يسترد ما انفقه على احراز المنصب . ولذلك يجب ان يكون الحكام من الذين يستطيعون ان يحفظوا مقامهم ولا يحقروه . وكان الاولى بالذين وضعوا نظام قرطاجنة ان يعينوا الاجور الكافية للاكفاء الذين يتولون المناصب العالية لكي يتفرغوا لخدمة بلادهم

« ولا يحسن بالمرء ان يتولى مناصب كثيرة في وقت واحد كما هي الحال في قرطاجنة لان من يقتصر على عمل واحد يحسنه اكثر ممن يعمل معه غيره . وهذا ظاهر في الجيش كما هو ظاهر في البحرية حيث تجد الشخص الواحد آمراً او مأموراً في وقت واحد . ولما كانت حكومة قرطاجنة مائلة الى الاوليغركية تراها تتزلف الى اهل الوجاهة وتعينهم حكاماً للمدن لكي يجمعوا منها ثروة فيكتنوا هذا العيب في حكومتهم . واللوم الاكبر على واضع نظام هذه المملكة فانه كان يجب عليه ان لا يبقي سبيلاً للشكوى والخروج على الحكومة اما الآن فاذا المت بالبلاد ملمة فلا يبعد ان يثور الشعب ويعصي اوامر حكامه ولا يجد الحكام من قوانين البلاد ما يردعونهم به عن العصيان

« هذا ما يستحق الذكر من مزايا حكومة اسبرطة وحكومة كريت وحكومة قرطاجنة »

انتهى كلام ارسطو باختصار قليل . وظاهر منه انه يفضل نظام الحكومة في قرطاجنة على نظامها في كريت وفي اسبرطة مع ان هاتين المملكتين اي كريت واسبرطة كانتا ارقى ممالك الاوربيين في ذلك العصر . وعليه فالفينيقيون الذين استعمروا قرطاجنة وضعوا لها نظاماً كفل لها النجاح والتفوق اكثر من سبعمائة سنة عدا ما قامت عليه الادلة التاريخية من تفوق الفينيقيين في بلادهم الاصلية سواحل سورية . انظر ما قاله فيهم حزقيال النبي نحو سنة ٥٨٨ قبل المسيح واصفاً غنى صور واتساع متاجرها قال :

« ايتها الساكنة عند مداخل البحر تاجرة الشعوب الى جزائر كثيرة هكذا قال السيد الرب يا صور انت قلت انا كاملة الجمال . تخومك في قلب البحور بناؤوك نمموا جمالك عملوا كل الواحك من سرو سنير اخذوا ارزاً من لبنان ليصنعوا لك سواري صنعوا من بلوط باشان مجاذيفك صنعوا مقاعدك من عاج مطعم في البقس من جزائر كتيم كتان مطرز

من مصر هو شراعك ليكون لك رتبة الاسبانجولي والارجوان من جزائر اليشة كانت غطاءك . اهل صيدون وارواد كانوا ملاحيك . حكماؤك يا صور الذين كانوا فيك هم ربابنتك شيوخ وبيبل وحكماؤها كانوا فيك قلافوك . جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك ترشيش تاجرتك بالفضة والحديد والقصدير والرصاص . ياوان وتوبال وماشك هم تجارك بنفوس الناس وبآنية النحاس اقاموا تجارتك ومن بيت توجرمة بالخيل والفرسان والبغال اقاموا اسواقك . بنو ددان تجارك جزائر كثيرة تجار يدك ادوا هديتك قرونا من العاج والابنوس ارام تاجرتك بكثرة صنائعك تاجروا في اسواقك بالبهرمان والارجوان والمطرز والبوص والمرجان والياقوت . يهوذا وارض اسرائيل هم تجارك تاجروا في سوقك بحنطة وحلاوى وعسل وزيت وبلسان . دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك وكثرة كل غنى بخمر حلبون والصوف الابيض . ودان وياوان قدموا غزلا في اسواقك . حديد مشغول وسليخة وقصب الذريرة كانت في سوقك . ددان تاجرتك بطنافس للركوب . العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك بالخرفان والكباش والاعتدة . تجار شبا ورعمة هم تجارك بانفر كل انواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب اقاموا اسواقك . حران وكنة وعدن تجار شبا واشور وكلمد تجارك . هؤلاء تجارك باردية اسمانجونية ومطرزة واصونة منرم محكومة بالحبال مصنوعة من الارز بين بضائعك . سفن ترشيش قوافلك لتجارتك فامتلأت وتمجدت جدا في قلب البحار . ملاحوك قد اتوا بك الى مياه كثيرة . كسرتك الريح الشرقية في قلب البحار . ثروتك واسواقك وبضاعتك وملاحوك وربابينك وقلافوك والمتاجرون بتجرك وجميع رجال حربك الذين فيك وكل جمعك الذي في وسطك يسقطون في قلب البحار في يوم سقوطك

الامة التي استطاعت ان تنشئ مثل صور وصيدا وقرطاجنة في غابر الازمان وتحكم نفسها بنفسها على اسلوب استحق اعجاب ارسطوطاليس كبير الفلاسفة السياسيين وامتدت تجارتها الى اقاصي البلدان الى الهند والصين شرقا والى اسبانيا و بلاد الانكليز غربا وشمالا ودارت سفنها حول افريقية واستخرج رجالها الذهب من مناجم الترنسفال والنحاس من مناجم اسبانيا والقصدير من مناجم انكلترا وحاربت رومية سنين عديدة — الا يحسن ان يستطيع ابناؤها الآن الاستقلال بادارة امورهم اذا شاؤا ولم يتعرض لهم من يقاومهم قبل ان يشتد ساعدهم